أضواء على النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني

أ.د. خير الدين يوسف شترة
أستاذ التاريخ الحديث بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية- جامعة الشارقة
kchatra@sharjah.ac.ae

(مُلَخَّصُ البَحث)

تتناول هذه الدراسة ظروف نشأة فكرة الجهاد البحري الجزائري (المسمى بالقرصنة) في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بداية العصر الحديث وتطورها، والخبايا التي أحاطت بقيامها من توافر للسفن والمنشآت الدفاعية لهذه العملية، والميادين التي نشطت من خلالها، وصولاً إلى الأدوار السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية والعسكرية التي أدتها الدولة الجزائرية بعد نشأتها وكيفية تأثيرها في علاقاتها مع محيطها الخارجي. وذلك من خلال البحث في أهم الظروف التي أحاطت بنشأة البحرية الجزائرية في العهد العثماني، وطبيعة النشاط البحري الجزائري من المنظور الديني والسياسي والاقتصادي، فضلا عن دراسة الكيفية التي كانت تتم بها عمليتا التنظيم والتجهيز التي اتسم بها الأسطول الجزائري، لنتناول في الأخير مدى مساهمة النشاط البحري للأسطول في دعم قطاعات الدولة، وكيف حقق التوازن للدولة الناشئة في علاقاتها الدولية.

المقدمة:

وجدت فكرة الجهاد البحري تربة خصبة، لتنمو وتترعرع في الحوض الغربي للبحر المتوسط فتبنتها الدول المغاربية وباركها المشايخ ،وساعدتها مجموعة من المعطيات التي كانت نتاجاً لظروف دولية وإقليمية توافرت حينها فزادت من انتشارها، فمن تلك الظروف الدولية: حسم العثمانيين لصراعهم مع المسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ولاسيما بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، كما أن الصراعات والتوترات التي كانت قائمة وقت ذاك بين الدول الأوروبية ومنها: سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م، وحروب الروكنكستا ضد مسلمي الأندلس وسواحل شمال إفريقية. كل ذلك زاد من انتشار فكرة العمل البحري الإسلامي، غير أن أهم عامل خارجي، لبروزها وكثافة انتشارها كان ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

ومن أجل ذلك راجت فكرة الجهاد البحري في غياب سلطة مركزية قوية ترد هجمات المحتلين.

إن ما قام به الجزائريون لاسيما بعد وصول العثمانيين إلى المنطقة جاء كرد فعل على التحرشات الاسبانية على السواحل المغاربية، ومن هنا كسب شرعيته والتي تمثلت في الدفاع عن الأرض والعرض، لكن بمرور الوقت واستقرار العثمانيين بالمنطقة تطور هذا النشاط الحربي ليُصبح لهم أسطول قوي يقوم بها بشكل منظم، ومعلوم أن نواة هذا الأسطول بدأت على يد الأخوين عروج وخير الدين، ليتطور ويتفاعل مع الظروف، ويُصبح القوة الضاربة للدولة الجزائرية بصفة خاصة ولشمال إفريقيا بصفة عامة، وانعكست أنشطته وعملياته البحرية على جميع مجالات الحياة اليومية للدولة، فأضحت غنائمه تُشكل موردًا هامًا لخزينة الدولة الجزائرية، وكلما كانت عائدات نشاط الأسطول الجزائري كبيرة رافقها بالضرورة استقرار سياسي، وازدهار اقتصادي ونمو اجتماعي. وكلما تراجعت هذه العائدات عانت الجزائر من اضطرابات في علاقتها الخارجية، مع انعكاسه سلباً على المجتمع؛ فتزداد الضرائب وينخفض المستوى المعيشي، مما يؤدي إلى انتشار الاضطرابات وتفشي الفتن.

١. طبيعة النشاط البحري الجزائري من المنظور الديني والسياسي والاقتصادي

بخصوص تعريف كلمة الأسطول يذكر المسعودي بأن "الأسطول": «كلمة رومية، للمراكب الحربية مجتمعة» (المسعودي، ١٩٦٥م، ص٢١٦) ، ويذهب المقريزي إلى القول بأن: «هذه اللفظة غير عربية» **(المقريزي، ج٣، (د.ت). ص ١٠٣)**، وهي ليست مذكورة في الصّحاح ولا في معجم الفيروز أبادي، أما الزبيدي فيعدها من العربية، وهي: «المركب الحربي المعد لقتال الكفار في البحر» **(الزبيدي، ج١، ١٩٦٥، ص١٧٤- أنظر أيضاً: كندرمان، ٢٠٠٢م، ص ٢٣)**، وقد أطلق على مجموع السفن أسطول وهو لفظ يوناني (Stolos) نقل إلى العربية**(زيدان، (د.ت)، ج١، ص ٢١٣)**، ويقال له أيضاً: (عمارة)، كما يطلق لفظ أسطول على مجموعة السفن أيا كان نوعها وأحياناً يطلق على سفينة حربية واحدة **(ابن رقية التلمساني، ١٨٤١م، ص٦)**، كما أنه يعني السفن التي يسافر فيها للقتال، أما الأسبان فيطلقون عليه الأرمادة (Armada) **(الكافي، ١٩٨١، ص ١٢)**، ويُعرف عند العثمانيين بالدونانمة **(Boro 2000 .P. 97)**، وقد بقيت هذه الكلمة الأكثر استعمالاً لتدل على معنى (flotte) بالفرنسية، أما ابن خلدون فيشير إلى أن قيادة الأسطول تُعدُ من: «مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب

وإفريقية، ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال» (**ابن خلدون، ٢٠٠٤، ص ٢٤٢**) حيث قسم الأسطول إلى: سفن سفرية لنقل الخيل والعدد والأزواد، وسفن قتالية مخصصة للمقاتلين والأسلحة والذخائر، أما الأسطولي فهو المحارب بحرًا بينما الجندي هو المحارب برًا وقائد السفينة سمي الناخوذة (وهي كلمة فارسية الأصل) (**ابن ماجد، ١٩٦٩، ص ٨١**) وقد أشاد أحد الشعراء بالأسطول قائلاً(**سعاد، (د.ت)، ص ٢٧**):

غَدَوتُ علَى المَيْمُون صبحًا وإنمَا ❁❁❁ غدَا المركبُ الميمونُ تحتَ المظفرَ

أطلَّ بعطْفَيه ومرَّ كَأنَّما ❁❁❁ تَشوَّفَ من هَادي حصان مُشهَّر

يسوقُ أسطولاً كانَ سفينةً ❁❁❁ سَحَائبَ صّيف من جهَام ومُمْطر

من جهة أخرى شاع مصطلح القرصنة بين دول الحوض الغربي للبحر المتوسط، واختلفت وجهات النظر في إطلاقها انطلاقًا من ايدولوجية ومعتقد كل اتجاه. لذا كانت النتيجة تعدد التعاريف وتنوع التسميات لهذا المصطلح، فهي من الناحية اللغوية وعلى أرجح الآراء مشتقة من الكلمة الإيطالية (corsa) وتعني: السباق، ومنها اشتقت كلمة التسابق، وهو الذي يقوم بفعل التسابق، واستعملت هذه الكلمة للتسابق البحري أي: الهجوم والاعتداء على السفن أو سواحل الدول الأخرى في القرن الرابع عشر ميلادي (**بلقاسم، ٢٠٠٧، ص٤**)، أما في اللغة الفرنسية فإن المصادر التي ترجع إلى القرن الخامس عشر ميلادي تخلو من أي ذكر لكلمة قرصنة، فكانت تستعمل عوض عنها كلمة Attaque التي تعني الهجوم، وكذلك Ecumeur بمعنى المهاجم أو القرصان، وهي مشتقة من الفعل Ecume وتعني الرغوة أو زبد البحر، أما حالياً فلها مرادف آخر وهو Pirate بمعنى قرصان Piraterie بمعنى قرصنة.

أما القرصنة اصطلاحاً: فهي مأخوذة من الأثر (الرغاوي) الذي تتركه السفن خلفها في عرض البحر أثناء عبورها، وتعني كذلك سفلة القوم، وفي كلتا الحالتين فإن هذا المعنى ينطبق على القراصنة، ولم تدخل كلمتا قرصنة وقرصان إلى اللغة الفرنسية إلا في القرن السادس عشر ميلادي(**جبار، ١٩٩٠، ص٩٩**)، وعموماً فإن ظاهرة القرصنة قديمة قدم التاريخ فهي تتألف عادة من النشاط الذي يعتمد على المصادفة، والتي تضيف ثروة مكملة لتلك الثروة الموجودة في مجتمع يحي دائماً في حدود إمكانياته، وكذلك هي حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب، أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية بجوازات سفر، ولجان وتعليمات في تلك الحقبة. (**كورين، ٢٠٠٧، ص٤٩**).

وعن ذلك يقول ابن خلدون: «شرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة في جمع النفير والطائفة من غزاة البحر، ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال، ثم يركبونه إلى سواحل الفرنجة وجزرهم على حين غفلة، فيخطفون ما قدروا عليه، ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً، ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم، وضجت طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينشرون في حاجاتهم». (**نورالدين، ٢٠٠٦، ص ص (٦٣-٦٤)**)، وهذه المقولة من ابن خلدون تثبت بلا جدال معرفة المسلمين في تلك الحقبة- ولربما قبلها بسنين- لهذه الظاهرة، وإن لم يسمونها باسمها والتي يبدو أنها اصطلاحيًا لم تُعرف إلا بعد مدة من ذلك، كما اتضح لنا من النص السابق أنهم عرفوا نوعين منها هما: قرصنة بحرية وهدفها اصطياد السفن في البحر، أما الثانية فالمقصود منها مهاجمة المدن الساحلية كونها تُعد نوعاً من أنواع القرصنة.

ويرى البعض أن القرصنة تعني ايضا اللصوصية والنهب على مياه الأقاليم، بعيداً عن سلطان الدولة، غير أن هذا التعريف لا يُعبر بدقة عن مصطلح القرصنة، فهي لا تعني دائماً اللصوصية؛ لأن هذه الأخيرة تلفظ Piraterie أو Piracy، ويطلق على ممارسيها اسم لصوص البحر أو قطاع الطرق البحرية، ويقوم بهذا النوع من النشاط البحري مجموعات من اللصوص لحسابهم الخاص، وهم لا يفرقون بين السفن الصديقة أو العدوة، السفن المسيحية أو المسلمة (**جبار، ١٩٩٠م، المرجع السابق، ص١٠٠**). لأن غرضهم الأول هو الحصول على الغنائم بصرف النظر عن هوية الضحية وهذا النوع يكاد ينفرد به القراصنة الأوروبيين.

غير أن التعريف الذي وضعته دائرة التعارف لاروس يكاد يكون هو الأكثر إحاطة بعملية القرصنة، حيث ورد فيه:« إن القرصنة عمل بحري لا تقوم به قوات نظامية، وإنما قوات خاصة مهمتها ملاحقة السفن التجارية للعدو، وضربها دون الاعتماد على القوات البحرية النظامية التي لا تستخدم إلا في الحرب»، إذاً فالقرصنة هي نوع من الحرب المحدودة غير المعلنة، أو هي شكل بديل لحرب الأساطيل، فرضتها الظروف التي كانت سائدة في تلك الحقبة(**الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٩،ص ١٥٥**) أما بالنسبة للمسلمين فقد اختلفت تعريفاتهم لهذا المصطلح، حيث أطلقوا عليه اسم الجهاد البحري، وكلمة الجهاد مأخوذة من كلمة الجهد وهو: بذل الطاقة والمشقة في مقاتلة العدو ولا سيما إذا كان جهاداً حقيقياً،

مـن أجـل نصـرة ديـن الله، وإعـلاء كلمتـه ورفـع رايـة الحـق، ومحاربـة الباطـل، وإذا خرجـت عـن هـذا المفهـوم لا تسـمى جهـاداً(**بـــن بـــدوي، ٢٠٠٣، ص ص(٤٨١-٤٨٥)**)، لكـن الكتابـات التاريخيـة الأوروبيـة عـدت ذلـك العمـل قرصـنة، إذ سـلطت أدبيـاتهم أضـواء كثيـرة علـى العمليـات البحريـة التـي كـان يقـوم بهـا الجزائريـون، كونهـا كانـت موجهـة ضـد السـفن الأوروبيـة، فسـببوا الكثيـر مـن المتاعـب لأوروبـا المتوسـطية وقـد وصـفهم "هايـدو" بقولـه: «...كـان القراصـنة!!؟ يُبحـرون أثنـاء الشـتاء والربيـع ويطوفـون فـي البحـر مـن الشـروق إلـى الغـروب، سـاخرين مـن سـفننا التـي كـان بحارتهـا فـي ذلـك الوقـت يتسـلون بـاللهو والقصـف فـي المـوانئ، وكـان القراصـنة يعرفـون أن السـفن المسـيحية الثقيلـة هـذه التـي لا تسـتطيع أن تحلـم بمطـاردة سـفنهم الخفيفـة، وأن تمـنعهم مـن النهـب والسـرقة..».(**خيـــر فـــارس، ١٩٧٩، ص٩١**)، ومـن خـلال هـذا الوصـف يُرجـع "هايـدو" تفـوق السـفن الجزائريـة علـى السـفن المسـيحية إلـى عـدم مبـالاة السـفن الأوروبيـة، ممـا يُعـد تقلـيلاً مـن مكانـة البحـارة الجزائـريين، ولقـد أشـار بعـض المـؤرخين الأوروبيـين أمثـال: "جـورج مارسـي" (George Marcais) واندري سـايوس (A Soyous).....إن المسـلمين هـم قراصـنة ولصـوص بحـر، وهـم الـذين علَّمـوا القرصـنة للأوروبيـين وقـد سـبقوهم إليهـا، لكـن الحقيقـة والواقـع عكـس ذلـك وهـو مـا ذهـب إليـه دومـاس لاتـري(Demas Latrie) مـن أن البـادئ بهـا هـم الأوروبيـون وأن مسـؤولية الجانـب المسـيحي عـن النهـب والسـلب الـذي تعرضـت لـه الحيـاة البحريـة أكبـر بكثيـر مـن مسـؤولية المسـلمين، وهـذا مـا أكـده أيضـاً "ادوار كانط"عنـدما قـال: « كـان الهولنـديون والانكليـز وأنـاس مـن جميـع الـدول الأوروبيـة، أكثـر شـراهة ووحشـية فـي قرصـنتهم مـن الجزائـريين، بحيـث أصـبح البحـر الأبـيض المتوسـط بـؤرة لقطـاع البحـر» (**جبـــار، ١٩٩٠م، المرجـــع الســـابق، ص ١٠٧**)، كمـا أورد هـذه المعاملـة السـيئة والوحشـية المـؤرخ "شـارل أنـدري جوليـان"من خـلال تطرقـه إلـى الحـديث عـن معاملـة الأسـرى الأوروبيـون والمسـلمين الـذين كـانوا علـى مـتن سـفن التجـديف، بحيـث يقـول: «إذ كانـت حيـاة الأسـرى الأوروبيـين المسـتعملين فـي تجـديف السـفن تثيـر أكبـر شـفقة، فقـد كـان أسـعد حظـاً بكثيـر مـن الأسـرى البربـر الـذين كـانوا مسـتعملين فـي تجـديف سـفن ملـك فرنسـا، والـذين كـانوا يُوسـمون بالحديـد المحمـي ويمنعـون مـن ممارسـة شعائر دينهم»(**مولود قاسم، ٢٠٠٧م، ص ص(٧٤-٧٥)**).

٢. دور فكرة الجهاد البحري في نشأة وتطور البحرية الجزائرية:

لقـد وجـدت فكـرة الجهـاد البحـري تربـة خصـبة لتنمـو وتترعـرع فـي الحـوض الغربـي للبحـر المتوسـط فتبنتهـا الـدول المغاربيـة وباركهـا المشـايخ، وسـاعدتها مجموعـة مـن

المعطيات التي كانت نتاجاً لظروف دولية وإقليمية توافرت حينها، فزادت من إنتشارها، فمن تلك الظروف الدولية حسم العثمانيون صراعهم مع المسيحيين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط لاسيما بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م(**ينظر، بوجلخة، ٢٠٠٥م، ص ١٥**)، وكذلك سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م ،مما أدى إلى طرد المسلمين منها وملاحقتهم إلى سواحل شمال إفريقية من طرف الاسبان(**الميلي، ١٩٦٤م، ص ٢٢**)، كما أن الصراعات والتوترات التي كانت قائمة آنئذ بين الدول الأوروبية فيما بينها وما نتجَ عنها مثل: الصراع الفرنسي، والاسباني المسيحي الكاثوليكي الذي تجلى في عهد" فرانسوا الأول" و"شارلكان" سنة ١٥٥٦م (**بوعزيز، ١٩٩٩م، ص ٢٣٦**) والتنافس الحاد الذي كان قائماً بين مختلف القوى الأوربية الاستعمارية مثل:الهولنديين، والفرنسيين، والانجليز والبرتغاليين خلال القرنين ١٧م و١٨م، زاد من إنتشار فكرة العمل البحري الإسلامي(**حنيفي،٢٠٠٧م، ص٢٥٥**). غير أن أهم عامل خارجي لبروزها وكثافة إنتشارها هو ظهور العثمانيين على مسرح الأحداث الدولية ولاسيما في الحوض الغربي للبحر المتوسط بصفة خاصة(**سعيدوني، ٢٠٠٠م، ص ١٩١**)، ومن الظروف الإقليمية والمحلية التي شجَّعت عليها؛ الموقع الجغرافي الممتاز للجزائر وطبيعة سواحلها المفتوحة على أوروبا والمتحكمة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مما جعلها طيلة الحقبة العثمانية محط أنظار وصراع بين دول الضفة الشمالية للمتوسط، ومن أجل ذلك راجت فكرة الجهاد البحري في غياب سلطة مركزية قوية ترد هجمات المحتلين (**قنان، ١٩٩٤م، ص ٣٤**).

وأول من لجأ إلى ممارسة الأنشطة الحربية البحرية بدافع ديني هم الأندلسيون الذين اشتهروا في مطلع القرن السادس عشر ميلادي بأعمالهم الحربية على وفق مبدأ حق الدفاع عن دار الإسلام بعد سقوط الأندلس، فكانوا يقومون أيضاً بمبادلة الأسرى والمشاركة الفعالة في تمويل مشاريع الجهاد البحري. وقد عمل الموريسكيون على تنشيط هذه الحركة الجهادية بهجماتهم المتواصلة على السواحل الاسبانية (**الصلابي، ٢٠٠٥م، ص٢٣٠**). وظلت غير منظمة ضد الأسبان والبرتغاليين إلى غاية ظهور الأخوين بربروسا (**ينظر، مؤلف مجهول، ١٩٣٤م، ص ٦**) اللذين عملا على تنظيم الصفوف وتوجيهها نحو الهدف المشترك والمتمثل في مهاجمة الصليبيين(**سعيدوني، ٢٠٠٠م، المرجع السابق، ص ١٩١**)، ومما سبق التطرق إليه نستنتج أن مصطلح القرصنة لم يظهر بهذا المفهوم إلا في القرن السادس

عشر ميلادي، بحيث عرف في القرن الرابع عشر ميلادي على أنه: «عمليات بحرية تمثلت في هجمات واعتداءات على السفن الأخرى» **(سعيدوني، ٢٠٠٠م، المرجع السابق، ص ١٩١)**، فاختلف الأوربيون ومسلموا شمال إفريقيا فيه بحيث عده الفريق الأول استيطان للبحر يُعتمد فيه على المصادفة، جاء ليكمل الثروات الموجودة. أما الفريق الثاني فقد عده نوعا من الجهاد البحري، وهو حق مشروع ضد هجمات الفريق الأول المتكررة.

ومهما كانت الآراء التي ذهب إليها الطرفان، فإن ما قام به مسلمو شمال إفريقيا خصوصاً بعد وصول العثمانيين إلى مسرح الأحداث جاء كرد فعل على التحرشات الاسبانية، والبرتغالية على السواحل المغاربية، ومن هنا كسب شرعيته التي تمثلت في الدفاع عن الأرض والعرض، لكنها بمرور الوقت واستقرار العثمانيين بالمنطقة تحولت إلى مرحلة الهجوم والمباغتة، لتتطور فيما بعد ويصبح لها أسطول قوي يقوم بها بشكل منظم.

٣. تنظيمات الأسطول الجزائري وتشكيلاته خلال العهد العثماني

مبدئياً وقع اختلاف كبير بين المؤرخين بشأن بداية ظهور صناعة السفن في الجزائر وبالتالي بداية نشأة الأسطول الجزائري في العهد العثماني، وظهرت في ذلك آراء عدة؛ فمنهم من يرى بأن بداية صناعة سفن الأسطول الجزائري كانت من طرف سكان الجزائر الذين استعانوا في ذلك بالمسيحين الأحرار والموالي، ومنهم من يرجع الفضل لازدهار صناعة السفن إلى محترفي الصنعة من الأندلسيين الذين استقروا في شمال إفريقيا خلال موجة حروب الاسترداد وما بعدها **(ينظر، بوعزيز، ٢٠٠٧م، ج١، ص ٢٤)**. فهمُ العارفون بالملاحة وفنونها، وهناك من كانت نظرته قريبة من الاتجاه الأول، حيث يرى أن فضل ازدهار صناعة السفن بالبلاد الجزائرية يعود إلى الأوروبيين من الأسرى والأعلاج، لكننا إذا تأملنا في هذه الآراء نلاحظ أن الرأي الأول يبرز دور السكان الأصليين في صناعة قطع الأسطول، ويضع الفئات الأخرى في مرتبة ثانوية. أما الرأي الثاني: فيبرز دور الأندلسيين كونهم طائفة مثقفة ومتحضرة لما عُرف عنهم من تقدم حضاري مهملاً في ذلك دور المغاربة والأوروبيين. أما الرأي الأخير فيرجع كل الفضل في صناعة سفن الأسطول الجزائري إلى الأوروبيين وذلك بواسطة الأسرى الذين أُسروا أثناء عمليات القرصنة، أو بواسطة العثمانيين عند مجيئهم، ومهما اختلفت الآراء، فإن صناعة سفن الأسطول قد ساهم فيها الجميع، لأن العثمانيين أصلاً أمة عسكرية وهي من وضعت النواة الأولى لسفن الأسطول، ثم جاء الأندلسيون وأدوا دوراً كبيرًا فيه

ولاسيما في صناعة المدافع (**عبد المجيد، ٢٠٠٢م، ص. ص (٣٢٥ – ٣٢٦)**) فجسد الأسرى الأوروبيون هذه التقنيات في الميدان. فضلاً عن فئات أخرى، فكان لكل نصيبه من بناء وتقوية الأسطول الجزائري.

كانت تلك السفن تُصنَّع من الأخشاب التي جلبت من بجاية، أو من خلال السفن المسيحية التي يستحوذون عليها، من خلال العمليات البحرية بعد تفكيكها حتى ولو كانت جديدة؛ لاعتقادهم أن استعمالها في الغزو كما هي سيلحق بهم مصيبة، وحتى الملوك كانوا يمنعونهم من استعمالها وهي جاهزة.(**قنان، ١٩٨٧م، ص١٠٩**)، وكانت تجلب الأخشاب من الغابات المحلية منذ سنة ١٧٠٢م (**عن أصل المقرانيين وثورتهم، ينظر، العسلي، ١٩٩٠م، ص ١٢٠**)، وهذا بعد الاتفاق مع عائلة المقرانيين المسيطريين على مناطق واسعة من الغابات في بلاد القبائل مقابل حصولهم على أراضي زراعية، وعلى إثر هذا الاتفاق أُنشأت مصلحة خاصة لهذه الأخشاب عُرفت بالكراستة، وكان مقرها في البداية بجاية، ثم انتقل إلى مدينة جيجل، ثم مدينة القل، وكانت أجود أنواع الخشب تلك الموجودة في بني فوغال غرب جيجل وتسمى الزان(**عباد، ٢٠٠٧م، ص ٣٢٢**)، أما بالنسبة للحبال والأحزمة والأشرعة، فكانوا يحصلون عليها عن طريق الاتفاق مع الأقاليم الهولندية، كما أن اليهود كانوا يجلبونها من القورنة وطنجة، وأثناء صناعة هذه المراكب كان صانعوها يهتمون بسرعتها وخفتها وهذا لضمان تأدية مهمتها على أحسن وجه **(Belhamissi 1996, p63)**.

وشهد الأسطول الجزائري تطورات كثيرة ولاسيما من حيث تعداد سفنه ومكوناتها (من حيث الحجم والقدرات القتالية)، ففي الحقبة الأولى (١٥٢٠-١٥٢٩)م كان يتكون من ثمانية عشر غليوطة، فضلا عن عدد من السفن الأصغر حجمًا (**وولف، ١٩٩٥، ص١٨٠**)، وقد أشار صاحب كتاب (الغزوات) إلى وجود الفرقاطات (FREGATE) والعشاريات والغلياطات (GALOITTE) في التشكيل الحربي للأسطول. (**حنيفي، ٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص ٢٦٥**)، أما في الحقبة الثانية أي خلال القرن السابع عشر ميلادي أضيف إلى هذه السفن البركانتي (BOGANTIN)، والبرتون الذي عرفته الجزائر بفضل المهاجرين الأندلسيين، فضلا عن السفن المستديرة والمدفوعة بالشراع مثل: لشختورة والتي تم تطويرها بأوروبا منذ سنة١٦٠٠م (**حنيفي، ٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص ٢٦٥**).

أما في الحقبة الثالثة أي في مستهل القرن الثامن عشر ميلادي ومطلع القرن التاسع عشر ميلادي فإن الأرشيفات القنصلية الفرنسية قدمت لنا أنواعًا أخرى من

السفن المستخدمة في الأسطول الجزائري منذ سنة ١٧٣٧م إلى سنة ١٨٣٠م، مثل: الشطيات والصنادل (GABARRE) والشينيات (GALERE) ونصف الشينيات (D.GALERE) والأغربة والفرقاطات والغليوطات والشالوبات (CHELOUPE) والبولاكو (POLACRE). **(دريـــاس، ٢٠٠٧م، ص ص (٢٢٣ – ٢٢٩))**، من جهة أخرى أورد الشريف أحمد الزهار في مذكراته أنواعًا أخرى من سفن الأسطول الجزائري وهي متمثلة في: «البركنتي ويحمل ٢٤مدفعًا والكرايك واللكطاط، فضلاً عن الزوارق الصغيرة من غير مدافع تدعى بالفشكايف والبلاندرة التي تحمل ٢٤ مدفعًا والكرابيط والشطية وكذلك البلاكرة والسكونة والزنبطوط وهي سفن حربية خفيفة وسريعة يستعملها لصوص البحر اليونانيون، وقد غنمها منهم الجزائريون. فضلاً عن الفيجوا وهي عبارة عن سفن صغيرة الحجم من جنس بلاكروز» **(الزهـــار، ١٩٨٠م ص– ص (٢٥–٣٣–١٥٤). راجـــع أيضـــاً– حنيفـــي هلايلـــي، ٢٠٠٧م، المرجـــع الســـابق، ص ٢٧٠– قنـــان، ١٩٨٧م، المرجـــع الســـابق، ص ص (١٠٧ – ١٩٢))**، والجدول الآتي يوضح ذلك:

السنة	عدد السفن	السنة	عدد السفن
١٧٢٤	٢٥سفينة	١٨١٥	٣٠سفينة
١٧٣٤	١٤سفينة	١٨٢٢	١٢سفينة
١٧٦٠	٦٠سفينة	١٨٢٥	١٤سفينة
١٧٩٩	١٢سفينة	١٨٣٠	١٥سفينة

هذا الجدول يوضح لنا أن عدد سفن الأسطول الجزائري في أوائل القرن الثامن عشر ميلادي عرفت نوعًا من الانتعاش، لكن بعد مؤتمر فيينا سنة (١٨١٥م)، بدأ يتراجع هذا التعداد، فضلاً عن حملة اللورد أكسموث الشهيرة سنة (١٨١٦م)، التي دمَّرت البنية التحتية للأسطول، ليُعاد تكوينه بعد ذلك بصفة جزئية بلغت أقصى حد لها سنة (١٨٢٥م)، قبيل الحصار الذي فرضته فرنسا على الجزائر عام (١٨٢٧م)، والذي دام ثلاثة سنوات، وهناك إحصائيات أخرى لقطع الأسطول الجزائري حينذاك من سفن ومدافع وعدد من الرجال في كل سفينة عبر سنوات مختلفة.

كما تجدر بنا الإشارة إلى مورد آخر ساهم في زيادة عدد قطع الأسطول وهو "الغنائم" بحيث أصبحت الغنائم تُدعم موارد الأسطول المالية بـ(٥١%)، من إجمالي تكلفة التجهيز، وحتى الإتاوات العينية التي تدفعها البلدان الأوربية، مقابل السلم شكَّلت هي الأخرى موردًا معتبراً للأسطول فكانت هولندا مثلاً تدفع سنويًا

(١٠,٠٠٠ ليـرة)، مـع الألـواح والأخشـاب والبـارود والقنابـل والمـدافع والحبـال، وبمثلهـا كانـت تـدفع الـدانمارك والسـويد، أمـا انجلتـرا وفرنسـا فكانـت تـدفع مـواد صـغيرة متعلقـة بالسـفن وتجهيزاتهـا، كالحبـال والبـارود (**Venture de paradis .S.D, pp(40-44** ()، وهـذه الإتـاوات كانـت تتماشـى مـع فتـرات السـلم والحـرب(**كـورين، ٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص. ص (٥١-٥٢)**).

وتـأتي فكـرة تنظـيم وتجهيـز السـفن كـدافع ملـح بعـد الاعتـداءات الاسـبانية علـى السـواحل المغاربيـة وهـو الأمـر الـذي اقتضـى ضـرورة إخضـاع الأسـطول البحـري إلـى تنظـيم دقيـق ومحكـم، وتجهيـزه للقيـام بعملـه فـي البحـر، فكـان لابـد أن تتسـم مثـل هـذه الاستعدادات بالحيطة والحذر ولاسيما أن العدو أثبت جدارته وقدراته في البحر.

ففـي مجـال التنظـيم كـان لابـد لقـادة السـفن الحربيـة مـن الاعتنـاء بسـفنهم، فهـي الوسـيلة الحقيقيـة للعمـل البحـري حيـث يقومـون بتفقـدها باسـتمرار، مـراعين فـي ذلـك نظافتهـا ونظامهـا وترتيبهـا، أمـا المجـدفين، فقـد كـانوا يخضـعونهم لانضـباط قاسـي جـداً، فيربطـونهم فـي أمـاكنهم أثنـاء عمليـة التجـديف بحيـث «...كـانوا لا يسـمحون لأي شـخص ولـو كـان الباشـا نفسـه أن يُغيـر مكانـه، أو أن يتحـرك مـن المكـان الـذي يكونـون فيـه...» **(خيـر فـارس، ١٩٧٩م، ص ٩١)**، وهـو مـا يُبـين مـدى الجديـة والصـرامة والدقـة فـي مجـال التنظـيم، وأثنـاء القتـال فـإن عمليـة الهجـوم تـأتي أولاً ثـم يليهـا الالتحـام بالسـلاح الأبـيض وهـذا هـو النظـام المعمـول بـه حينهـا، وبعـد العـودة يـتم تفحـص السـفن بعنايـة فائقـة، حيـث تُشـحذ السـيوف ثـم تلحـم مـن جديـد، وكانـت أي عمليـة بحريـة لا تـدوم أكثـر مـن خمسـون (٥٠) يومًـا، ونـادراً مـا كانـت تصـل إلـى هـذه المـدة، كمـا أنهـم كـانوا لا يخرجـون فـي فصـل الشـتاء للعمليـات البحريـة إلا نـادراً فيضـطرون إلـى اسـتغلال هـذه المـدة فـي إصـلاح السـفن وتفقـدها **(كـورين،٢٠٠٧م، المرجـع السـابق، ص ٥٢)** ويـتم ذلـك بتجريـد السـفن مـن جميـع تجهيزاتهـا ومعـداتها فـي الميناء وحتـى ثقـل الموازنـة الـذي يتكـون مـن الأحجـار والرمـال كانـت تُنـزع مـن ظهـر كـل سـفينة وتوضـع فـي المخـزن التـابع لهـا، ولا يُسـمح لأي سـفينة أخـرى باسـتعماله، فـلا يتبقـى علـى ظهرهـا سـوى السـارية والخشـبة التـي تُشـد إلـى السـارية، قصـد تثبيـت الأشـرعة أمـا السـفينة فإنهـا ترسـو بـالرأس والمـؤخرة، كمـا أن السـفن الصـغيرة هـي الأخـرى كانـت تُشـد حبالهـا قريبـة مـن السـفن الحربيـة الكبيـرة والمخـازن الحديثـة البنـاء، أمـا الميناء فكانـت تقـام عليـه حراسـة مشـددة مـن جهـة البـر والبحـر، ففـي جهـة البحـر كانـت تقـوم بحراسـة الميناء باسـتمرار سـفينتان كبيرتـان تسـيران

بالمجاديف، وعلى متن كل واحدة منها ٢١ بحاراً مهمتهما منع العبيد من الفرار بالسفن ومنع قوارب الصيد من الدخول إلى المرفأ **(كاثكارات، ١٩٨٢م، ص٧٧)**.

لقد أجمع المؤرخون الأوروبيون والأمريكيون على أن البحرية الجزائرية كانت منظمة أحسن تنظيم، زيادة على شجاعة قادتها، ومن بين المؤرخين الذين أشادوا بذلك المؤرخ الفرنسي "دي غرامون"(De Grammont ,H) الذي قال: «لقد أخذت جرأة الرياس الجزائريين تتطور وتزداد باطراد، حتى بلغوا عباب المحيط الأطلسي، وهاجموا السفن الاسبانية المسلحة تسليحًا ثقيلاً والمحملة بالذهب والفضة والبضائع الفاخرة، وهي راجعة من أمريكا اللاتينية،كما باغتوا أكثر من مرة سكان شواطئ خليج غسكونيا، وسواحل المنشى وبحارة الانجليز..» **(De Grammont. 2002. P7-13)**، والذي يمكن ان نستنتجه من هذا القول أن المؤرخ الفرنسي اعترف بقدرة البحارة الجزائريين على الزحف لأقصى شمال أوروبا، كما أشاد بالتفوق البحري للأسطول الجزائري على الرغم من الإمكانيات الكبيرة للأساطيل الأوروبية، وفي نفس الاتجاه يقول المؤرخ الفرنسي "هنري غاروا" (Henry Guru): «إن (القرصنة الإسلامية)؟؟ المنظمة في البدء كانت كدفاع مشروع للرد على الفرسان النصارى الذين ظلوا يتصرفون تصرفات الحروب الصليبية... لكنها تحولت في مملكة الجزائر إلى مؤسسة دائمة وريعها يصب في ميزانية الدولة...»**(مولود قاسم،٢٠٠٧ ، ص. ص (٧٠- ٧١))**، وهو ما ذهب إليه أيضاً المؤرخ الفرنسي برودويل (Braudel) **(Braudel (S.D). P48)**

أما في مجال التجهيز فقد اتبعوا أسلوبًا مشابهًا لأسلوب التنظيم السالف الذكر، حيث كان تجهيز السفن الصغيرة يشبه السفن الاسبانية في وهران؛ لأن هذه الأخيرة تعد مكان تمركز التجار، وهذه السفن كانت من النوع الذي له أشرعة فضلا عن سفن أخرى ذات تسليح **(الفاسي، ١٩٨٣م، ج١، ص ٣٠)** حيث تبدأ عملية التجهيز عندما يصدر الداي أمراً لوكيل الحرج **(ينظر، سعيدوني، ١٩٨٤م، ص-ص (٢٧- ٢٨))** بتجهيز الأسطول عندها يبدأ بفرض حظر على السفن التجارية التي في الميناء لكي لا تغادره ثم يحبس العبيد حتى الغسق، وبعده يُعين لكل سفينة خبير في معاينة الأشرعة وإصلاحها ويساعده في ذلك ثلاثة من البحارة أو أكثر أحياناً، ثم تفتح الأشرعة من طرف العبيد بعد أن كانوا قد وضعوا حاجيات السفينة من مؤن وذخيرة، وعندما تستكمل كل الإجراءات يرفعون علم الداي وأعلام كبار شيوخ الطرق الصوفية فضلا عن أعلام الدول التي هي في حرب مع الجزائر وكذلك الدولة التي خرج الأسطول للبحث عن سفنها**(كاثكارات، (ب.ت)، المصدر**

السابق، ص- ص (٧٨-٧٩))، وقبل ذلك فإنه كان يقام للبحارة احتفال ديني لرفع المعنويات ترافقه مأدبة مكونة من الكسكس ولحم الخروف، مع دق الطبول وعزف المزامير.

وبعد كل هذه الاستعدادات النفسية والمادية يأتي كاتب رئيس السفينة، فيقوم بتسجيل أسماء المتطوعين الذين سيُبحرون معه وتطلق المدافع عدة طلقات إيذاناً على أن الأسطول مستعد للرحيل، ويطلب من كل بحار أن يلتحق بالسفينة مزوداً بسلاحه الذي هو نفقته الخاصة والمتمثل عادةً في البندقية والمسدس **(عمورة، ٢٠٠٦م، ص- ص (٥٦ – ٥٧))**، ثم يأتي شيخ البلدة لقراءة الفاتحة والدعاء للسفينة بتحقيق الانتصار في عملياتها ضد العدو، وبعد هذا الدعاء يقوم العبيد بحل سلاسل الرسو ويسير قبطان الميناء**(يوجلخة، ٢٠٠٥م، ص١٢١)** ومساعديه في مقدمة السفينة، لإرشادها حتى تخرج من الميناء وتدخل عرض البحر، وكانت عند مرورها بقبة أحد الأولياء الصالحين في قمة الجبال المحاذية للساحل تطلق عدة طلقات بالمدافع للتحية، ثم تواصل سيرها**(خوجة، ١٩٨٢م، ص ١١٧)**، وبعد خروج السفينة وابتعادها عن الميناء يقوم العبيد بجمع السلاسل والحبال التابعة لها ووضعها في مخزنها، انتظارًا لعودتها**(كاثكارات، (ب.ت)، المصدر السابق، ص ٧٩)**، لقد كانت عمليتي التنظيم والتجهيز معقدتين للغاية، لكن البحارة سرعان ما اعتادوا على هذا النظام وحافظوا عليه لسنوات طويلة واستطاعوا من خلاله السيطرة على غرب البحر المتوسط.

ومن مظاهر القوة في البحرية الجزائرية حينها تلك التحصينات المنيعة التي فُرضت على المدن الساحلية للجزائر ولاسيما في مدينة الجزائر التي كانت حصنًا للإسلام لا يمكن اختراقه وقد زاد من قوتها الموقع الطبيعي حتى أضحى الاقتراب منها من جهة البحر يُوحي بالرهبة والمنعة ويتبين ذلك من خلال تلك الاستحكامات التي بناها العثمانيون، فقد طوروا دفاعاتهم بعناية كبيرة وبدرجة عالية من المهارة العسكرية **(سبنسر، ٢٠٠٦م، ص ص٤٢- ٤٣)** طيلة حكمهم للمدينة، حيث دفعتهم إليها ظروف الحكم من جهة، وشدة العداء الذي كانت تضمره لهم الدول المسيحية وعلى رأسها إسبانيا وفرنسا وإنجلترا، ولذلك كانت ناحية المدينة ومنطقة الشاطئ بالخصوص تكثر بها الحصون والأبراج وتزدحم بها المنشآت الدفاعية التي اهتم بها الجواسيس الأوروبيون في مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، ورسموا لها خرائط وأطنبوا في ذكرها وبالغوا في وصفها، ومن أهم هذه المنشآت

الدفاعية **(حليمي، ١٩٧٢م، ص٢٤١)**: أسوار المدينة، الأبراج[1] **(للتوسع يراجع: - جيمس ولسن، ٢٠٠٧م ، ص٢٢٠- وأيضاً: حليمي، ١٩٧٢م، المرجع السابق، ص. (ص٢٣١- ٢٤٣). - عمورة، ٢٠٠٦م، المرجع السابق، ص٦٦)**، وخندق المدينة **(للتوسع: كاثكارت، ١٩٨٢م، ص٨٦)**.

٤. أدوار النشاط البحري للأسطول الجزائري وانعكاساته على قطاعات الدولة:

قبل الخوض في غمار الحديث عن هذه الأدوار والانعكاسات؛ يجدر بنا التطرق إلى الرجال الذين قادوا هذا العمل الجبار فقد وصفهم "التمجروتي" في كتابه: (النفحة المسكية في السفارة التركية): «بأنهم تميزوا بالشجاعة وقوة الجأش والبصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبًا في قلوب العدو»**(نقلاً عن: بلحميسي، ١٩٨١م، ص ٥٧)** ، ومن خلال هذه الشهادة تتضح لنا قوة شخصية هذه الطائفة التي حكمت الجزائر بقبضة من حديد، ولربما يرجع ذلك أيضاً إلى معرفتهم بكيفية التأقلم مع هذه الظروف وتسييرها لصالحهم، حتى تفوقو على رياس القسطنطينية، وقد ورد في صفحات المصادر والوثائق العربية منها والأجنبية ذكر لأسماء بحارة كثر سطع نجمهم في العمل البحري خلال هذه المرحلة لعل أشهرهم: البايلرباي خير الدين باشا الذي قال فيه الأمير شكيب أرسلان أنه: «إذا كان"أندري دوريا" (Andrey Doria) أمير الأساطيل المسيحية فإن خير الدين يُعد أمير الأساطيل الإسلامية» **(أرسلان، ٢٠٠١م، ص ١٥٦)**، حيث ذاع صيته في البحر المتوسط إثر إنقاذه لمسلمي الأندلس فدخل في خدمة السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)م للحصول على الدعم وأطلق عليه اسم "بكلربك" واستدعى لقيادة الأسطول العثماني في القسطنطينية في أكتوبر ١٥٣٢م وحقق عدة انتصارات هناك وكانت وفاته سنة١٥٤١م **(أبو زيدون، ٢٠٠٣م، ص ١١٨)**، ومنهم أيضاً حسن آغا الطوشي الذي خلف خير الدين في منصب البيلربك، وعمل على قهر القراصنة الأوروبيين وتوطيد الأمن ووضع أسس الدولة، كما حاول جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية، وتوفي سنة ١٥٤٤م **(عيسى، ٢٠٠٨م، ص ٥٢٢)**، ونذكر منهم أيضاً صالح رايس الذي امتاز بقيادته الحكيمة في البحر وبسياسته الخارجية والداخلية المتوازنة، فالأولى: تمثلت في إبعاد الأسبان نهائيًا عن الأراضي الجزائرية ووضع حد فاصل لمشاغبات الدولة المغربية السعدية وإعلان الجهاد، أما

[1]- ومن أهمها: برج تامنفوست الذي بُني سنة ١٦٨٥م، وبرج واد الخنيس عند مصب وادي الخنيس، وبرج السفيد الّذي بني بالحامة سنة ١٦٦١م، وبرج القنطرة أو برج الآغا الّذي بني سنة ١٧٤٦م، وبرج باب عزون.

الثانيــة: فتمثلــت فــي إدخــال بقيــة أجــزاء الصــحراء الجزائريــة تحــت حكــم الســلطة المركزيــة بــالجزائر العاصــمة، تــوفي بمــرض الطــاعون ســنة١٥٥٦م(**المــدني، ٢٠٠٧م، ص ٣١٧**) ومــنهم أيضــاً مــراد رايــس الــذي اشــتهر باســم Morato Arraes (**ســعد الله، ١٩٨٧م، ص ٦٠**)، ودرغــوث باشــا" و"علــج علــي" وقــارة علــي، و"ســنان باشــا" منقذ تونس وغيرهم.

ومــن وجهــة نظــري فــإن أشــهرهم علــى الإطــلاق هــو الــرايس حميــدو بــن علــي[٢](١٧٦٥-١٨١٥)م الــذي وصــفه لنــا "إســماعيل ســرهنك باشــا" فــي كتابــه (حقــائق الإخبــار عــن دول البحــار) بقولــه: «لقــد كــان علــى جانــب كبيــر مــن الجــرأة والإقــدام حتــى أنــه كثيــراً مــا كانــت العــائلات الاســبانية تُخــوّف أولادهــا بــذكره»(**ســرهنك باشــا، ١٨٩٤م، ج٢، ص٤١٢**)، حتــى قــال فيــه"وليم شــيلر (w-shaler) القنصــل الأمريكــي بــالجزائر (١٨١٨-١٨٢٤)م: «كــان مــن الــوطنيين الجزائــريين القلائــل الــذين تقلَّــدوا هــذا المنصــب لذكائــه الخــارق وشــجاعته الفائقــة»(**شــالر، ١٩٨٢م، ص٣٥**)، وتــوفي ســنة١٨١٥م(**البيردوفــال، ١٩٧٢م، ص ٢٧**)، لقــد كــان هــؤلاء الريــاس فــي البدايــة مــن الأتــراك الــذين جــاءوا مــع "عــروج" و"خيرالــدين" ولكــن الــدائرة اتســعت لتشــمل الأعــلاج وبعــض الأوروبيــين الــذين كــانوا فــي الغالــب مــن المتمــردين علــى دولهــم أو مــن المرتزقة.

كانــت ميــادين عمــل ســفن الأســطول الجزائــري فــي الحــوض الأبــيض المتوســط والمحــيط الأطلســي عديــدة ومتنوعــة، ذلــك أن ســفن الأســطول الجزائــري ســلكت فــي الحــوض الغربــي للمتوســط عنــد خروجهــا مــن الجزائــر الاتجــاه الشــرقي المحــاذي لشــواطئ الــبلاد البربريــة حتــى أعــالي جــزر الأرخبيــل ومملكــة كانــدي وعنــدها ينزلــون فــي بحــار صــقلية وخلــيج البندقيــة، ثــم يعــودون إلــى بحــر يــولي وشــيا وصــولاً إلــى جنــوة والقورنــة ،وبروفــانس ،وجــزر كورســيكا وســردينيا، ومايوركــا، ومينوركــا ومنهــا العــودة إلــى الجزائــر، وكانــت هــذه العمليــة تســتغرق خمســين (٥٠) يومًــا(**قنــان، ١٩٨٧م، المرجــع الســابق، ص ٧٧**) وفــي هــذا الحــوض غــنم الجزائريــون غنــائم كثيــرة(**فــي إحصــائيات هــذه الغنــائم راجــع: بــوعزيز، ١٩٨٦، ج٢، ص ص (٨٥-١٨٩). - الجيلالي، ١٩٨٠م، ص ٥٨٤**).

أمــا فــي المحــيط الأطلســي، فقــد ســلك الأســطول الجزائــري الطريــق الــذي يتجــه إلــى برشــلونة وفلانــس، وأليكانــت، وملاقــة، فكــان هــذا الطريــق مخصــص للاســتطلاع

[٢]- يرجع أصله إلى أسرة جزائرية منحدرة من أصل أندلسي بدأ عمله في هذا المجال في الساحل الوهراني(**الجيلالي، ١٩٨٠م، ج٣، ص ٥٨٢**)، وعندما نال إعجاب الداي حسن بن حسين (١٧٩٢-١٧٩٨)م أسند إليه رئاسة مركب ضخم يُعرف بالشبك ومن هنا زادت شهرته وقوته،

وللوصول إلى مضايق أعالي قادش وطنجة، وكانت تقوم بهذه العملية مابين ست إلى ثماني سفن، بسبب وعورة المنطقة، بحيث تنقسم هذه السفن إلى قسمين: قسم مهمته التجول على طول السواحل الاسبانية والبرتغالية فيبدأ من رأس سان فاسان إلى رأس فينستير، وقسم يُبحر في المياه العالية لمطاردة السفن التي يصادفونها في هذا الوقت، وكانت هذه العمليات لا تخلوا من غزو السواحل التي يمرون بها كغليسيا لأخذ بعض سكانها كأرقاء. وقد غنم الجزائريون فيها أيضاً غنائم كثيرة(**بوعزيز، ١٩٨٦م، المرجع السابق، ص. ص (١٩٠ – ١٩٣)**) ونلاحظ أن معظم العمليات التي حدثت في المحيط الأطلسي كانت استكشافية أكثر من أنها عمليات جهادية، وحتى الغنائم كانت قليلة مقارنة بعمليات الحوض المتوسط.

وعند عودة السفن وشروعها بالرسو تأتي القوارب؛ لأخذ العبيد ثم يضعونهم في سراديب مظلمة(**كاثكارات،(ب.ت)، المصدر السابق، ص ٨٠**) وما هي إلا ساعات حتى يدخل عليهم عدد من كبار الدولة ومعهم وكيل الحرج "أفندي الصغير"(**سعيدوني، ١٩٨٤م ، المرجع السابق، ص ٣٣**) فيقوم هذا الأخير مع معاونيه باستجوابهم وتسجيلهم بواسطة مترجمين وكتابة أسمائهم مع الكنية والجنسية والمهنة وغيرها من البيانات، وكان الذين لهم أقارب من هؤلاء الأسرى الذين يستطيعون دفع فدية كبيرة يوضعون في مكان خاص بهم، أما الآخرون فيرسلون إلى بيسيتان وهو أكبر سوق للعبيد حيث يتم عرضهم إلى البيع(**ماخوفسكي، ٢٠٠٨م، ص ١١٣**).

أما بالنسبة إلى باقي الغنائم فكانت تُقسم في السنوات الثلاثين الأولى من القرن السابع عشر ميلادي على النحو الآتي: يأخذ الداي ١٢% بمدينة الجزائر و١٠% في تونس و١% لإصلاح الرصيف البحري وكذلك المرابط يأخذ ١% والباقي من٨٨ الى٨٦% يذهب نصفه إلى ملاك السفن والنصف الآخر لطاقم السفينة وبحارتها فيُقسم بينهم على النحو الآتي: الرايس يأخذ من ١٠ إلى ١٢ سهم، أما نصيب الأغا فهو ٠٣ أسهم والانكشارية سهمين ورئيس المدفعيات ٠٣ أسهم أما الربان فيأخذ ٠٣ أسهم مع الملاح ورقيب الأشرعة، أما قيم الباب فيأخذ سهمين والجراح ثلاثة أسهم، والبحارة الذين على سطح السفينة لهم سهمين، وإذا كان على ظهر السفينة رجال من أهل البلاد(الجزائريين)يأخذون سهماً واحداً، لأنه لا يُعتمد عليهم كثيرًا، أما بالنسبة للأرقاء فإن سيدهم يأخذ أسهمهم وأحيانًا يُعطي لهم جزءا منها(**وولف، ١٩٩٥م، ص.ص (١٩٦– ١٩٧)**)، لقد كان نظام تقسيم الغنائم نظامًا صارمًا جدًا على الرغم من حدوث بعض التجاوزات من طرف الرايس

اذ كان يأخذ من الغنائم قبل أن يطلع وكيل الحرج إلا أن الداي كان يتغاضى عن ذلك، بسبب الجهد الذي بذلوه والأخطار الكثيرة التي كانوا يتعرضون لها.

وجملة القول: لقد تعددت قطع الأسطول الجزائري فمنها ما هو محلي الصنع، ومنها ما هو مصنَّع خارجياً، كما تنوعت مصادرها، فمنها من كانت من الهبات أو الهدايا المقدمة من طرف الدولة العثمانية أو البلدان الأوروبية، أما عن نظام سفن الأسطول وتجهيزها، فقد كانت تخضع لنظام صارم ودقيق غلب عليه الإحكام، بدءاً بالإنضباط الأمني والفني في الميناء وانتهاءً بالصرامة في عملية ترتيب الرياس والضباط في أماكنهم، إن هذا التنظيم والتجهيز الذي ميَّز الأسطول الجزائري مكّنه من القيام بعمله بشكل ناجح في مختلف ميادين المواجهات البحرية وبخاصة في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

وعن الدور الذي أدته عمليات النشاط البحري للأسطول في تسيير شؤون الدولة الجزائرية، ففي المرحلة الأولى أي خلال بداية تشكل الدولة الجزائرية في ظل الحكم التركي كان دوره بالدرجة الأولى هو إنقاذ مسلمي الأندلس، بحيث سارع خير الدين على رأس عمارة بلغ عدد سفنها ٣٢ سفينة باتجاه السواحل الاسبانية، فحمل منها عدداً كبيراً من المسلمين المستضعفين والفارين بدينهم وكرامتهم من بطش وقسوة النصارى حتى أنه كان يترك أكبر عدد من بحارته ليضع مكانهم هؤلاء المستضعفين وبعد أن تتم عملية الإنقاذ بنجاح ترجع تلك العمارة لنقل هؤلاء البحارة(**المدني، ٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص ٢٠٨**)، كما تمكن الصالح رايس من إنقاذ ٦٠ ألف أندلسي من نواحي بلنسية، والأمر نفسه قام به كل من القائدين "حسن فنزيانو"و"مراد رايس" على سواحل أليكانت الاسبانية(**بوحوش، ١٩٩٧م، ص ٧٦**)، ويأتي بالدرجة الثانية من حيث الأهمية تحرير السواحل المغاربية من الاحتلال الاسباني، حيث بدأت عملية التطهير بتحرير بجاية سنة ١٥٥٥م وطرد الحاميات الاسبانية منها، ثم مستغانم سنة ١٥٥٨م على يد حسن بن خير الدين كما خاض الأسطول البحري الناشئ معارك عديدة لتحرير المرسى الكبير سنة ١٥٦٣م(**العسلي، ١٩٨٦م، ص ص (٨٠ -٩٦)**).

من جهة أخرى لم يقتصر دور الأسطول الجزائري في هذه المرحلة على هاتين النقطتين؛ بل تعدى ذلك إلى جوانب أخرى كالسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي جاءت بعد الأمن والاستقرار الذي شهدته السواحل المغاربية وتشكل الأيالة الجزائرية.

- ✓ **في المجال السياسي:** ويمكننا تقسيمه إلى قسمين: القسم الأول ويكمن في تسيُد رجال البحر أمر السلطة والحكم في الجزائر، ذلك أن الغنائم والانتصارات المبهرة لنشاط الأسطول الجزائري أدت دورًا كبيرًا في ازدياد نفوذ الرياس على حساب الأوجاق لاسيما خلال السنوات (١٥١٨-١٦٧١)م، فأصبح البايلربايات لا يُعيَنون إلا بعد رضى رياس البحر المشهورين(**سعيدوني، ٢٠٠٠م، المرجع السابق، ص ٢٠٠**) واستمر الأمر كذلك إلى غاية هزيمة معركة ليبانت (l'epante) سنة ١٥٧١م ليُصبح تعيين الباشا بعدها من صلاحيات الباب العالي، أما القسم الثاني فيتمثل في صد الأعداء وقد بقي هذا الدور متواصلاً إلى غاية نهاية الحكم العثماني في الجزائر، وفي هذا المجال قام الأسطول الجزائري بأعمال جبارة ومشرفة ومن أمثلة ذلك: صده لحملة شارل الخامس سنة ١٥٤١م(**بوعزيز، ١٩٩٣م، ص ص (٢١-٢٤)**) ، كما صدَّ حملة الدانمارك سنة ١٧٧٠م في عهد الداي محمد عثمان باشا، وإلحاقه الهزيمة بجيش الضابط الايرلندي الأصل "الكونت أوريلي (la conte oreilly) سنة ١٧٧٥م التي أعدَّها الملك الاسباني كارلوس الثالث، والمصير نفسه لحق بحملة أنطونيو الأولى والثانية سنتي ١٧٨٣م و١٧٨٤م(**ولد خليفة، ٢٠٠١م، ص٦١ فضلا عن** المحافظة على الاستقرار والأمن وحماية السواحل المغاربية من الغزوات الغربية على حسب قول"مولاي بلحميسي"في كتابه (تاريخ البحرية) عن تقرير كتبه "لانفرود وتشي" (Lanfrood Duchy) في تلك الحقبة مفاده أن مدينة الجزائر وأسطولها لو دمرا ،فسوف يؤدي ذلك حتمًا إلى تدمير القوة العثمانية في السواحل المغاربية ومصر، وبذلك يسهل على المسيحيين الاستيلاء على هذه المناطق وتصبح خالصة لهم وبذلك يخسر المشرق مساعدة الجزائر، وكذلك استئصال العثمانيين في طرابلس وجربة والمنستير وعنابة وبنزرت وغيرهم((**ولد خليفة، ٢٠٠١م، ص٦٢**)).

كذلك من مهامه في المجال السياسي؛ وقوفه إلى جانب الأساطيل العثمانية في حروبها ضد الدول الأوروبية ولعل من أهم هذه المعارك: معركة ليبانت في اليونان سنة ١٥٧١م، والحرب العثمانية الروسية سنة ١٧٨٧م.(**عمورة، ٢٠٠٦م، المرجع السابق، ص ٢٦٨**)، وكانت آخر معارك هذا التلاحم هي معركة نافرين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م ضد الحلف الروسي الانجليزي والفرنسي والتي رسمت نهاية مأسوية لنشاط الأسطول الجزائري.

أما على مستوى العلاقات الديبلوماسية مع الدول المتوسطية فقد استطاع خير الدين باشا في نهاية الثلث الأول من القرن السادس عشر ميلادي أن يضع النواة الأولى للأسطول الجزائري والذي استطاع أن يُسيطر على البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون ونصف من الزمن، مؤسسًا للجزائر علاقات مع محيطها الخارجي، فاتسمت في غالبها بالود وروابط الصداقة خلال مرحلة القوة وبالخوف والتوتر أيام الضعف، حيث عرف الأسطول الجزائري أواخر العهد العثماني مرحلة جديدة كانت من أهم مظاهرها تغيير موازين القوى بين الدول الأوربية والجزائر نتيجة ضعفه وتفككه، وبفضل النشاط القوي للأسطول الجزائري في البحر استطاعت الدولة الجزائرية عقد العديد من المعاهدات والاتفاقيات الدولية، ومن أمثلة هذه المعاهدات: معاهدة ٧ جويلية ١٦٤٠م المُوقعة بين فرنسا والداي(**عباد،٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص .ص (١٢٣-١٢٧)**)، ومعاهدة سنة ١٧٧١م مع الدانمارك وكان من أهم بنودها أن تدفع الدانمارك ثمن الصلح الذي قدر بمليونين ونصف المليون دولار (**الزهار، ١٩٨٠م، المرجع السابق، ص ٢٥**)، ومعاهدة ٢٦ أوت ١٧٨٦م مع اسبانيا ومن أهم ما نصت عليه حرية التجارة الجزائرية في موانئ أليكانت ومالقا وبرشلونة مع دفع الأسبان ثمن الصلح والمقدر بـ ٢٠ مليون فرنك فضلا عن إيقاف عمليات القرصنة بين الطرفين، كما دفع الأسبان أموالاً طائلة للحصول على الصلح والسلم مع الجزائر، وهذه الأموال مكَّنت الجزائر من إدخال بعض مظاهر التمدن إلى مدينتها مثل: إنشاء بعض الحدائق، وتشييد دُور جميلة زُينت بالرخام الذي جيء به من جنوة وليفورنا(**عباد،٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص١٦٩**) ، ومعاهدة سنة ١٧٩٥م مع الولايات المتحدة الأمريكية التي وقَّعها "جوزيف دونالد صوه"مع داي الجزائر، وأهم ما نصت عليه تعهد الولايات المتحدة الأمريكية بدفع مبلغ قدره ٧٢٥٠٠٠ دولار مقابل افتداء الأسرى الأمريكان وعلى ان يقوم الداي بمساعدتهم للوصول إلى معاهدات صلح مع كل من إيالة طرابلس وإيالة تونس(**شالر، ١٩٨٢م، ص ١٤٤**)، أما في فترات السلم فقد ساهم النشاط البحري في ضمان علاقات ندية للدولة الجزائرية تجسَّدت في تبادل الرسائل والقناصل مع عدد من الدول، منها تلك التي كانت مع "جورج كلافرت" (Clafert George)، و"لورد بليتمود" وبين "جون شامبرلين"John Chamberlain)، والسير ويليم جونسون" (William Johnson)، والقنصل"جيمس فريزال"(**God fery 2000. P P (432-433)**)، ومما تضمنته هذه الرسائل شكاوى من مطاردات السفن

الجزائرية للسفن التي تخرق دولها المعاهدات المبرمة مع الجزائر **(بوعزيز، ص. ص (٨٤-١١٤))**.

- **في المجال الاقتصادي:** بسبب النشاط البحري للأسطول الجزائري أضحت الغنائم وكل ما يتصل بها من أسرى وأتاوات توفر مصدراً مهما لخزينة الدولة **(سعيدوني والبوعبدلي، ١٩٨٤م ص ٤٤)** مما أدى إلى رفاهية سكان المدن وتجمع الثروات بين أيديهم مثل ما فعل "علي بتشين"، بحيث ذكرت إحدى الوثائق أنه يملك ما يزيد عن ٦٠٠ أسير **(سعيدوني، ٢٠٠٠، المرجع السابق، ص ٢٠١)**، ورافق هذا الوضع ازدياد في المبادلات التجارية الداخلية بين المدن الجزائرية بحيث ارتفعت نسبة الرسوم من ٨ إلى١١% على الغنائم المحلية التي كان يتحصل عليها كل رايس، ويقوم ببيعها في الداخل، لكن هذا الوضع المزدهر بدأ بالتغيّر بدءاً من سنة ١٧٨٠م عندما حوصر النشاط البحري الجزائري من طرف الأساطيل الأوروبية**(برينان وآخرون، ١٩٨٤م، ص ١٤٠)**.

فضلا عن هذه الأدوار الاقتصادية للأسطول البحري، فإننا لا يمكن أن ننكر دوره في حماية التجارة الوطنية، وهو الذي يبرز من خلال حماية السفن التجارية الجزائرية في تجوالها بالبحر المتوسط، وهوما أدى إلى رواج النشاط التجاري، وبالتالي إلى اغتناء الخزينة بعائدات مالية **(سعيدوني، ٢٠٠٠، المرجع السابق، ص ٢٠١)**.

- **أما في المجال الاجتماعي:** فإننا نلمس انعكاسات النشاط البحري للأسطول على هذا المجال من خلال زيادة نسبة الأسرى في المدن، حيث قُدر عددهم في بعض الحقب بربع سكان مدينة الجزائر، مما ساهم في جلب عناصر جديدة للتركيبة السكانية، فمنهم من أصبحت له مكانة في دواليب الحكم مثل: العنصر اليهودي، أو في النشاطات الاجتماعية والاقتصادية مثل: لأندلسيين والأعلاج **(بوحوش، ١٩٩٧، ص٧٧)**، وبسبب هذه العناصر الوافدة حدث تغيير عميق في التركيبة المجتمعية والعرقية، وبرزت مهن وحرف وصناعات جديدة لاسيما لدى مجتمع المدينة، كما أدى هذا التوافد المكثف للأسرى إلى مظاهر سلبية مست بنية المجتمع المحلي.
- **في المجال الثقافي:** بفضل موارد الأسطول الجزائري شُيّد في الجزائر عدداً كبيراً من المساجد والزوايا والمدارس التي برز فيها التأثير العمراني والهندسي لآسيا الصغرى، المتمثل في القباب الكبرى المثمنة الأضلاع التي تغطي المصليات، وتحيط بها من الجهات الأربعة أروقة سقوفها على شكل قباب صغيرة **(جوليان، ١٩٧٨م، ج٢، ص. ص (٣٥٥ – ٣٥٦))**، ومعلوم أن هذه الحركة العمرانية كان يقوم بها بعض الأغنياء

الذين كانت لهم عوائد من نشاط الأسطول الجزائري بحيث أن الدولة لم تول اهتماما بهذا الجانب.

من خلال هذا المبحث نستنتج أن النشاط البحري للأسطول الجزائري أثَّر على جميع الميادين في الدولة الجزائرية بحيث عرفت هذه الحقبة الزمنية (١٥١٨-١٨٣٠)م نوعين من الأنشطة البحرية؛ فقد كانت هناك الأنشطة الخاصة، التي تبناها رجال لهم نفوذ كبير في الدولة والتي عادت بالنفع بشكل مباشر على المجتمع وتجلى ذلك في ازدهار العمران، وأخرى عامة أشرفت عليها الدولة وساهمت بدورها في تخفيف الضرائب المفروضة على السكان؛ بسبب العائدات الوفيرة.

٥. **ضعف البحرية الجزائرية أواخر العهد العثماني في الجزائر:**

عرفت البحرية الجزائرية مرحلة ضعف وانكماش منذ منتصف القرن الثامن عشر ميلادي ويعود هذا التقهقر إلى الأسباب التالية:

- كثرة التدخلات الأجنبية لاسيما بعد مؤتمر فيينا سنه ١٨١٥م، مما أدى إلى توتر دائم في العلاقات الجزائرية الأوربية، وكان المنعرج الحاسم في هذه العلاقات عندما تمكنت دبلوماسية المدفع الأمريكية من أن تحقق انتصاراتها على السياسة الجزائرية منذ سنة ١٨١٢م وهو ما مهَد الطريق للدول الأخرى على أن تحذوا حذوها، فقامت إنجلترا بتسيير حملتها الشهيرة بقيادة "اللورد اكسموث" سنة ١٨١٦م للمطالبة باستخلاص آلات تجهيز السفن وغيرها من التجهيزات البحرية، كما منعت انجلترا وفرنسا حرية التنقل البحري على الأسطول الجزائري تحت التهديد، ولم يكتفوا بهذه الحملة الشرسة، بل تعدى ذلك إلى إثارة الفتن الداخلية بالبلاد عندما قامت فرنسا سنة ١٨٢٤م عن طريق حاميتها الموجودة في عنابة والقالة بمساعدة ثورة القبائل وبتشجيع من القناصل والهيئات البرلمانية الانجليزية.

وحتى الاتفاقيات التي دأبت الجزائر على عقدها مع الدول الأوربية والتي غالباً ما نصَّت على حرية الملاحة وحق المتاجرة أضحت تُقيد حرية النشاط البحري الجزائري، مما أدى إلى نزاعات دولية لاسيما عقب كل نشاط حربي للأسطول الجزائري، فتتحجج الدول الأوربية ببعض الخروقات عند ممارسة الجزائر لحقها في الدفاع عن مصالحها في البحر المتوسط، فيلجأون إلى التهديد باستعمال أسلوب المواجهة العسكرية، لإرجاع حقهم المزعوم، ومن ثم يفرضون اتفاقيات تتماهى مع مصالحهم ومن أشهر هذه الحملات الكيدية: الحملات الاسبانية المتتالية على مدينة الجزائر خلال سنوات(١٥٧٧-١٧٨٤)م والتي ألحقت أضراراً بالغة بهذا الأسطول، والحملة الانجليزية الهولندية على مدينة الجزائر سنة ١٨١٦م، التي أدت إلى تخريب مجمل سفن الأسطول التي كانت راسية في الميناء الرئيسي حينها، ولم

يسلم منه سوى قطعتان بحريتان كانتا في وهران(**عباد ،٢٠٠٧م، مرجع سابق، ص٣٢٥**).

- فضلا عن تورط الأسطول الجزائري في حروب خارجية ولاسيما مع الدولة العثمانية، بسبب التزام الجزائر بتقديم الدعم للأسطول العثماني في حروبه ضد الممالك الأوروبية والحلف المسيحي، فالكثير من قطع الأسطول الجزائري كانت لا تعود إلى الجزائر من المشرق بعد انتهاء مهمتها(**عباد ،٢٠٠٧م، مرجع سابق ، ص٣٢٥**).
- كما أن التقدم الصناعي والتقني قد مكَّنا الدول الأوربية من تحدي القوة الجزائرية والوقوف في وجهها بدءاً من أواسط القرن السابع عشر ميلادي، ولعل استيلاء الفرنسيين على ١٠٨٧١ غنيمة بحرية من السفن الجزائرية بمياه المتوسط خلال الحقبة (١٧٩٣-١٨١٥)م دليل على التفوق الذي أحرزه الأوربيون (**سعيدوني، ٢٠٠٠، ص١٩٦**).
- زيادة على ضعف الإدارة المركزية، بسبب استسلامها لليهود، بحيث وُضعت أهم الموارد الاقتصادية للبلاد في يدهم مثل: اليهوديين "بكري وبوشناق"(**ينظر، حنيفي، ٢٠٠٧م، المرجع السابق، ص ٤٤- و- شريط، ١٩٨٥، ص١٧٩**). من حبوب وفلين وخشب وصوف وزيت وغيرها من المواد الأخرى، مما جعلهم يرفعون ثمن بعض المواد التي لها علاقة بصناعة السفن مثل:الخشب، فنتج عن ذلك سخط القبائل التي كانت تبيع لهم الأخشاب ومنعتهم من حملها، فظلت هذه الأخشاب مكدسة وهذا ما أحدث فجوة في صناعة السفن الجزائرية(**هلال، ١٩٩٠م، ص ٢٩**)، فضلا عن الانهيار السياسي الذي عرفته الأيالة الجزائرية بصفة خاصة وباقي الأقطار العربية بصفة عامة والذي جاء نتيجة لسوء الحالة الأمنية وتفشي الفتن والفوضى(**وولف، ١٩٩٥م، المرجع السابق، ص ١٩**).
- فضلا عن الأضرار التي لحقت بالمدن الجزائرية من جراء الغارات المفاجئة للأساطيل الأوربية في الحقبة الممتدة من(١٦٣٤-١٨١٦)م وهذه الهجمات نتج عنها خسائر بشرية وعمرانية باهظة.
- ولعل من أهم أسباب هذا التدهور في نظرنا كان تحول النشاط البحري أواخر العهد العثماني بالجزائر من هدف ديني سامي جاء للدفاع عن الإسلام وحماية أراضيه من العدوان إلى أغراض اقتصادية بحتة جاءت طلبًا للغنى والكسب والربح، وهذا ما عبّر عنه المثل الشعبي الشائع في تلك الحقبة بين البحارة(يابريطة ياكريطة ياقاع البحر) وهذا المثل يوضح لنا أن الغنائم كانت بالنسبة إليهم أهم من أي شئ آخر ولو كلفهم ذلك حياتهم.

كانت هذه جملة من الأسباب المباشرة التي أضعفت الأسطول الجزائري؛ القوة الوحيدة التي كانت تعتمد عليها الدولة الجزائرية حينئذ في رد الاعتداءات الأجنبية، وكانت معركة نافرين ١٨٢٧م من المعارك المهمة بالبحر المتوسط، بالنظر إلى نتائجها بالغة الخطورة على تطور الأحداث بمنطقة البحر المتوسط عامة والأقطار العثمانية خاصة، حيث كان لها تأثير سلبي على الجزائر وعلى أسطولها الذي دمر ربعه في هذه المعركة وهو ما مهَّد للغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م، معلنًا بذلك عن نهاية هذه القوة العظمى التي سادت البحر المتوسط لأزمنة طويلة ، لقد قضت معركة نافارين على معظم قطع الأسطول الجزائري، فلم يعد قادرًا على تجديد هذه القطع في ظل المشاكل السياسية والاقتصادية والأمنية.... التي كانت تتخبط فيها الدولة الجزائرية.

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج تمثلت في الآتي:

إن مصطلح القرصنة لم يظهر بهذا المفهوم إلا في القرن السادس عشر ميلادي، فاختلف فيه الأوربيون ومسلموا شمال إفريقيا بحيث عده الفريق الأول على أنه استيطان للبحر يُعتمد فيه على المصادفة، جاء ليكمل الثروات الموجودة، أما الفريق الثاني فقد عده نوعا من الجهاد البحري، وهو حق مشروع ضد هجمات الفريق الأول المتكررة.

إن الأسطول الجزائري كان متنوعاً من حيث تعداد وشكل ونوعية المعدات البحرية المرافقة لسفن أسطوله البحري، والتي تعكس مستوى تقني عال، وخبرة لم تكن متاحة لكثير من الأقطار المتوسطية خلال تلك الحقبة من الزمن، فهذا النظام الإداري والتنظيمي الصارم، والتجهيز الدقيق مكَّناها من تبوء مكانة مرموقة في الحوض الغربي للبحر المتوسط،

إن كل العمليات البحرية التي شهدها البحر المتوسط اتخذت طابع الكر والفر بين الجانبين، وغلبت عليها المصالح الاقتصادية أيضاً، كما أن الأسطول الجزائري لم يكن مستأثراً لوحده بممارسة الجهاد البحري، ولكن شهرته جاءت من تفوقه على الدول الأوروبية في هذا المجال.

إن النشاط البحري للأسطول الجزائري أثَّر على جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الداخلية منها والخارجية، بحيث عرفت هذه الحقبة الزمنية(١٥١٨-١٨٣٠)م نوعين من الأنشطة البحرية (خاصة وعامة)؛ فأما الخاصة فهي تلك التي تبنَّاها رجال متنفذين في الدولة وتجلت آثارها في ازدهار

الأنشطة الوقفية والاجتماعية، والمظاهر العمرانية والبيئية والصحية..، بينما العامة هي تلك التي أشرفت عليها السلطة الحاكمة وكانت لها أبعاد اجتماعية واقتصادية مثل: التخفيف على الرعية من الضرائب المفروضة على السكان بسبب العائدات الوفيرة،

إن أفول نجم البحرية الجزائرية عقب مؤتمري فيينا سنة ١٨١٥م، وإكس لاشابال١٨١٨، اللذين أنهيا دور فرسان البحر الجزائريين بصفة نظرية من خلال الإشعار الذي أرسلته الدول الأوربية إلى الداي حسين باشا سنة ١٨١٩م ،لكن الوجود العسكري الجزائري في البحر المتوسط انتهى عمليًا سنة ١٨٣٠م باحتلال فرنسا للجزائر.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

باللغة العربية:

١. المخطوطات:

١) ابن رقية التلمساني(محمد بن محمد)، (١٨٤١م)، الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة، تر.ألفونس روسو، (مخطوط غير منشور).

٢. الكتب:

٢) البيردوفال (أ)، (١٩٧٢م)، الرايس حميدو، تر، محمد العربي الزبيري، (د، ط)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر.

٣) باتسيك (ماخوفسكي)، (٢٠٠٨م)، تاريخ القرصنة في العالم، تر، أنور محمد إبراهيم، (د، ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

٤) بن بدوي (عبد العظيم)،(٢٠٠٣م)، الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز، تق.صفوان نور الدين وآخرون ، دار بن رجب، مصر.

٥) برينان (أندري) وآخرون، (١٩٨٤م)، الجزائر بين الماضي والحاضر، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، (د، ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

٦) بلحميسي (مولاي)، (١٩٨١م)، الجزائر من خلال الرحلات المغاربية في العهد العثماني، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

٧) بوجلخة (عبد اللطيف)، (٢٠٠٥)م، الدولة العثمانية، (د، ط)، دار المعرفة: الجزائر.

٨) بوحوش (عمار)، (١٩٩٧م)، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ونهاية ١٩٦٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٩) بوعزيز (يحي)، (١٩٩٩م)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

١٠)بوعزيز (يحي)، (٢٠٠٧م)، الموجز في تاريخ الجزائر القديمة والوسطى، ج١، (د- ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

١١)بوعزيز (يحي)، (١٩٩٣م)، المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد(١٧٨٠-١٧٩٨)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
١٢)بوعزيز (يحي)، (١٩٨٦م)، الموجز في تاريخ الجزائر القديمة والوسطى والحديثة، ج٢، دار النفائس، بيروت.
١٣)جرجي (زيدان)، (د.ت)، التمدن الإسلامي، ج١، مر. حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة.
١٤)جوليان (شارل أندري)، (١٩٧٨م)، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج٢، تع: محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط٢، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس.
١٥)الجيلالي (عبد الرحمان محمد)، (١٩٨٠م)، تاريخ الجزائر العام، ج٣، دار الثقافة، لبنان.
١٦)جيمس (ولسن ستيفن). (٢٠٠٧م)، الأسرى الأمريكان في الجزائر (١٧٨٥-١٧٩٧)، تر. علي تابليت، دار ثالة للنشر، الجزائر.
١٧)حليمي (عبد القادر)، (١٩٧٢م)، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل ١٨٣٠، دار الفكر الإسلامي، الجزائر.
١٨)ابن خلدون(عيد الرحمان)، (٢٠٠٤م)، المقدمة، تح. خليل شحادة، دار الفكر. سوريا.
١٩)خوجة (حمدان بن عثمان)، (١٩٨٢م)، المرآة، تق وتع وتح، محمد العربي الزبيري، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٢٠)خير فارس (محمد)، (١٩٧٩م)، تاريخ الجزائر الحديث، ط٢، مكتبة دار الشرق، بيروت.
٢١)درياس (لخضر)، (٢٠٠٧م)، المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، ط١، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
٢٢)الزبيدي(محمد المرتضى)، (١٩٦٥م)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج١، تح. عبد الستار أحمد فراج، لجنة وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
٢٣)الزهار (أحمد الشريف)، (١٩٨٠م)، مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار (نقيب أشراف الجزائر)، تح، أحمد توفيق المدني، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٢٤)أبو زيدون(وديع)، (٢٠٠٣م)، تاريخ الإمبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، ط١، دار الأهلية، الأردن.
٢٥)سبنسر (وليم)، (٢٠٠٦م)، الجزائر في عهد رياس البحر، دار القصبة للنشر، الجزائر.
٢٦)سرهنك باشا (إسماعيل)، (١٨٩٤م)، حقائق الإخبار عن دول البحار، ج٢، ط١، المطبعة الأميرية بولاق مصر، القاهرة.
٢٧)سعيدوني (ناصر الدين)، (٢٠٠٠م)، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٢٨)سعيدوني (نصر الدين)، (١٩٨٤م)، موظفو الدولة الجزائرية في القرن ١٩، (د، ط)، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر.
٢٩)سعيدوني (ناصر الدين)، (٢٠٠٠م)، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
٣٠)سعيدوني (ناصر الدين)، وبوعبدلي (المهدي)، (١٩٨٤م)، الجزائر في التاريخ -العهد العثماني-، (د. ط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

٣١) شالر(وليم)، (١٩٨٢م)، مذكرات وليم شالر القنصل الأمريكي بالجزائر، تر. إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

٣٢) شريط (عبد الله)، الميلي (محمد المبارك)، (١٩٨٥م)، مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي، المؤسسة الوطنية للكتاب ط٢. الجزائر.

٣٣) شكيب (أرسلان)، (٢٠٠١م)، تاريخ الدولة العثمانية ، تح، حسن السماحي سويدان، ط١، دار ابن كثير، دمشق.

٣٤) الصلابي (علي محمد)، (٢٠٠٥م)، الدولة العثمانية عوامل النهضة وأسباب السقوط، ط٢، دار المعرفة، لبنان.

٣٥) عباد(صالح)، (٢٠٠٧م)، الجزائر خلال العهد التركي (١٥١٤ – ١٨٣٠)، ط٢، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

٣٦) العسلي(بسام)، (١٩٩٠م)، محمد المقراني وثورة ١٨٧١ الجزائرية، ط٣، دار النفائس، الجزائر.

٣٧) العسلي (بسام)، (١٩٨٦م)، الجزائر والحملات الصليبية، ط٣، دار النفائس: بيروت.

٣٨) عمورة(عمار)، (٢٠٠٦م)، الجزائر بوابة التاريخ من قبل التاريخ إلى ١٩٦٢، ج١، دار المعرفة: الجزائر.

٣٩) عيسى (الحسن)، (٢٠٠٨م)، تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية، ط١، دار الأهلية، الأردن.

٤٠) الفاسي (حسن بن محمد الوزان)، (١٩٨٣م)، وصف إفريقيا، ج١، ترن محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٤١) قنان (جمال)، (١٩٩٤م)، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، (د، ط)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد: الجزائر.

٤٢) قنان (جمال)، (١٩٨٧م)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (١٥٠٠– ١٨٣٠)، (د، ط)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر.

٤٣) كاثكارات (جيمس ليندر)، (ب.ت)، مذكرات أسير الداي كاثكارات (قنصل أمريكا في المغرب)، تر، إسماعيل العربي، (د، ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

٤٤) الكافي (محمد البشير)، (١٩٨١م)، قاموس المصطلحات البحرية، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت لبنان.

٤٥) كندرمان (هانس)، (٢٠٠٢م)، مصطلح السفينة عند العرب، تر. نجم عبد الله مصطفى، شركة أبو ظبي للطباعة والنشر الإمارات العربية المتحدة.

٤٦) كورين (شوفالييه)، (٢٠٠٧م)، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، تر.جمال حمانة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

٤٧) ابن ماجد(أحمد)، (١٩٦٩م)، ثلاث أزهار في معرفة البحار، تح. ونشر ثيودور شوموفسكي تر. محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة.

٤٨) ماهر (سعاد)، (د.ت)، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر.

٤٩) المدني (أحمد توفيق)، (٢٠٠٧م)، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (١٤٩٢ – ١٧٩٢)، ط١ن دار البصائر، الجزائر.

٥٠) المسعودي(أبي الحسن علي)، (١٩٦٥م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، تح. أسعد داغر، دار الأندلس، بيروت لبنان.

٥١) المقريزي(تقي الدين أبي العباس)، (د.ت)، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، دار العرفان، لبنان.

٥٢) مؤسسة أعمال الموسوعة، (١٩٩٩م)، الموسوعة العربية العالمية، مج١٨، ط٢، الرياض.

٥٣) مؤلف مجهول، (١٩٣٤م)، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتع: نور الدين عبد القادر، (د، ط)، المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية :الجزائر.

٥٤) مولود قاسم (نايت بلقاسم)، (٢٠٠٧م)، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل ١٨٣٠، ج١، دار الأمة، الجزائر.

٥٥) الميلي (مبارك بن محمد الهلالي)، (١٩٦٤م)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج٣، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.

٥٦) نورالدين (عبد القادر)، (٢٠٠٦م)، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر ، الجزائر، دار الحضارة.

٥٧) هلال (عمار)، (١٩٩٠م)، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٨٦٢)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

٥٨) ولد خليفة (محمد العربي)، (٢٠٠١م)، الجزائر والعالم (ملامح قرن وأصداء آلفيه)، (د، ط)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.

٥٩) وولف (جون .ب)، (١٩٩٥م)، الجزائر وأوروبا، تر.أبو القاسم سعد الله، الؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

٣. الرسائل الجامعية:

٦٠) بلقاسم (عياش)، (٢٠٠٧م)، قضايا التاريخ العثماني عند الباحثين الجزائريين منذ ١٩٦٢، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

٦١) جبار (عبد الناصر)، (١٩٩٠م)، بنو حفص والقوى الصليبية في غرب البحر المتوسط، (غير منشورة)، ماجستير فيالتاريخ الحديث، جامعة القاهرة. مصر.

٦٢) عبد المجيد (قدور)، هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط ونتائجها الحضارية خلال القرن (١٦ و١٧)م/(١٠-١١هـ)، (غير منشورة)، رسالة ماجستير، تاريخ إسلامي، جامعة الأمير عبد القادرللعلوم الإسلامية، قسنطينة.

٤. الدوريات:

٦٣) حنيفي (هلايلي)، (٢٠٠٧م)، "التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع٢٤، دار الهدى: عين مليلة. الجزائر.

٦٤) سعد الله (أبو القاسم)، (١٩٨٧م)، "رياس البحر"، مجلة الدراسات التاريخية، ع٠٣، جامعة الجزائر: الجزائر.

باللغة الفرنسية:

1. Les livres

65) Belhamissi (Moulay), Marine et marins d'Alger, (1518– 1830) (1996),Tom II, (Face à – l'Europe), Bibliothèque Nationale d'Algérie: Alger;

66) Boro :(S)Les corsaires En Méditerranée.(2000).Traduit De L'italien Par Ahmed Somai, édition Lo Porte Paris.

67) Braudel(F), (S.D) La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à L'époque de de Philipe2, 5éme édition 48.

68) De Grammont (H). (2002). histoire d`alger sous la domination turque 1515-1830 . (présentation de lemnouare merouche . éditions bouchene . France.

69) God fery (fusher), (2000). légende barbaresque guerre commerce et piraterie en Afrique du Nord de 1415 a 1830 .Traduit et annote, Farida Hellal, office des plecations Universitaires. Alger.

70) Venture de paradis, Alger aux VIII eme Siècle, tom2, Editions Bouslama: Tunis..

Highlights of the Maritime Activities of the Algerian Fleet during Ottoman Rule

Dr. Khireddine Youssef Chatra
Professor of Modern History, Department of History and Islamic Civilization-University of Sharjah
kchatra@sharjah.ac.ae

Abstract

This paper explores the circumstances surrounding the emergence and development of the Algerian maritime struggle, often referred to as piracy, in the west of the Mediterranean in modern history. It also studies the conditions that lead to its emergence as the availability of vessels and defence structures. In discussing the existing the conditions during the founding of the Algerian navy during Ottoman rule and the nature of its activities from the religious, political and economic perspectives, the author reviews the political, economic, social, cultural and military roles of the country after its establishment and its effect on its relationship with the outer world. The paper also explores the mechanisms of organizing and equipping the fleet in order to highlight the contributions of the navy to the various sectors of the country and achieving an equilibrium in the nascent country's international relations.